



The Rhetorical And Structural Context Of The Verses About Mountains In The Holy Qur'an

Raghad Khalid Mohammed 

Department of Arabic Language / College of Education /
Al-Hamdaniya University / Al-Hamdaniya -Mosul- Iraq

Article Information

Article History:

Received May 21th, 2025

Revised June 10th, 2025

Accepted June 29th, 2025

Available Online June 1st, 2026

Keywords:

Context

Structure

Rhetoric

Correspondence:

Raghad Khalid Mohammed

dr.raghad8080@gmail.com

Abstract

The word “mountains” are mentioned in the Holy Qur’an in multiple contexts. Some of them come by way of definition, and some of them are the opposite. This creation has a cosmic nature, and man is unable to contemplate the essence of his creation, unless God wills it for him to know that. It is sufficient for us to search, investigate, and deduce the hidden meanings behind the structures and contexts. Contained therein, this paper entitled: (The rhetorical compositional context of the word “mountain(s) in the verses of the Holy Qur’an). It is divided according to the fields of semantics, as it is the science that investigates the meanings behind the structures. The research came in an introduction and six demands, As for the introduction, we mentioned the reason for choosing the title and something about the nature of mountains and the reasons for their creation. The first requirement came about the declarative sentence. The second requirement comes about the constructive sentence with its branches. The third requirement comes about the method of introduction and delay. The fourth requirement deals with the method of separation and connection. The fifth requirement is about definition. Indefiniteness, and the sixth requirement of brevity and redundancy, then followed by a conclusion in which we show the most important conclusions reached by the researcher, then a list of the most important sources and references. And from God is success.

DOI: [10.33899/radab.v56i105.63467](https://doi.org/10.33899/radab.v56i105.63467), ©Authors, 2023, College of Arts, University of Mosul.

This is an open access article under the CC BY 4.0 license (<http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/>).

السياق التركيبي البلاغي لآيات الجبال في القرآن الكريم

رغد خالد محمد *

المستخلص

ورد لفظ الجبال في القرآن الكريم بسياقات متعددة ، فمنها ما جاء على سبيل التعريف ، ومنها ما كان عكس ذلك ، ولهذا المخلوق طبيعة كونية يعجز الانسان عن التفكير في كنه خلقه ، إلا ما شاء الله له أن يعلم ذلك ، وحسبنا البحث والتقصي واستنباط المعاني الكامنة من وراء التراكيب والسياقات الواردة فيها ، وقد جاء هذا البحث الموسوم : (السياق التركيبي البلاغي لآيات الجبال في القرآن الكريم) مقسماً بحسب أبواب علم المعاني ، فهو العلم الذي يبحث في المعاني الكامنة وراء التراكيب ، فجاء البحث في مقدمة وستة مطالب ، أما المقدمة فقد ذكرنا فيها سبب اختيار العنوان وشيئاً من طبيعة الجبال وأسباب خلقها ، والمطلب الأول جاء عن الجملة الخبرية ، والمطلب الثاني جاء عن الجملة

* قسم اللغة العربية / كلية التربية / جامعة الحمدانية - الموصل - العراق.

الإنشائية بتفريعاتها ، أما المطلب الثالث جاء عن أسلوب التقديم والتأخير ، والمطلب الرابع عن أسلوب الفصل والوصل ، والمطلب الخامس في التعريف والتكثير ، والمطلب السادس في الإيجاز والإطناب ، ثم أعقبها خاتمة بيّناً فيها أهم ما توصل إليه البحث من استنتاجات ، ثم مسردٌ بالمصادر والمراجع . ومن الله التوفيق .

الكلمات المفتاحية: السياق ، التركيب ، البلاغة

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين خالق الأكران، منشئ الجبال، مجري السحاب، وصلاة وسلام على الحبيب المصطفى _ صلى الله عليه وسلم _ وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين ، وبعد ...

عُنِيَ القرآن الكريم بكل ما يخصُّ الإنسان في الحياة الدنيا وفي الآخرة من مخلوقات ، والجبال لها نصيبٌ من هذا الاعتناء، فقد ذُكرت في العديد من الآيات الكريمة في سياقات متعددة تدعونا إلى التفكير والتدبّر للوصول إلى دررها المكونة ، فهي من عجائب المخلوقات الجديرة بالتأمل، وهذا ما دعاني إلى التفكير والتأمل فيها ، وجاء بحثي هذا نتاجاً لهذا التأمل ، فقد رأيت الجبال في (مكة المكرمة) تختلف كلياً عن الجبال في باقي بقاع الأرض من التي شاهدها ، فالجبال هناك فيها من الرهبة ما فيها ، فعند النظر إليها يتملكننا شيء من الخوف وشيء من البأس والقوة ، فالناظر إليها ومنذ الوهلة الأولى سيشعر بهذا الشعور ، كما أنها تختلف بالألوان فغالبيتها تتميز باللون الأسود أو اللون العميق، وفيها من القسوة والرهبة ما لا يصفها واصف ، تشعر وكأنها تحوي بين طياتها سرّاً عجباً من الصعب الوصول إليه ، ولكننا نحاول والتوفيق من الله خالقنا وإياها _ عزَّ وجلَّ _ ، كما أنَّ في خلق الجبال فوائد عديدة للإنسان ، فالجبال هي التي تمسك الأرض وتحافظ عليها من الاضطراب ، قال تعالى : (خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ) لقمان: ١٠ ، وقد جعلت حصوناً وأكناناً للإنسان والحيوان ، وغيرها الكثير من الصفات والخصائص وهي مع كل ذلك سيكون حالها الفناء والزوال ، وقد صَوَّرَ القرآن هذا الزوال والفناء بصور متعددة سنذكرها ، وهي معجزة من معجزات الله تعالى ، فهي مع قوتها وبأسها وصلابتها لا تساوي شيئاً أمام قوة الله _ عزَّ وجلَّ _ وتنفيذ أوامره ، بل هي في الحياة الدنيا تسبح لله وتسجد له ، والقرآن الكريم يذكر الجبال لبيان عظمتها ومكانتها ، والاستدلال بهذه العظمة على عظمة خالقها وموجدها ، وبيان قدرته على إيجاد الخلائق مرة أخرى بعد فنائها .

وقد وجدت من خلال البحث وبحسب اطلاعي أنَّ أغلب الدراسات كانت تعنى بالجانب الجغرافي ، وما وجدت غير بحثٍ واحدٍ تكلم عن قضية الجبال بعنوان : (من أسرار التعبير القرآني في وصف الجبال) للدكتورة ريهام مختار محمد ، ومقالات بعنوان : آيات الله المدهشة الجبال نموذجاً وأسرار الاستعمال القرآني لها ، للدكتور علي محمد الصلابي ، وبعد الاطلاع عليهما وجدت الاختلاف واضحاً بينهما وبين ما أصبو إليه من بحثي هذا ، ومن الله التوفيق والسداد .

وقد عُنِيَ العلماء قديماً وحديثاً بالجبال ، وما يهنا هنا هم أهل اللغة ، قال ابن فارس : "الجيم والباء واللام أصلٌ يطرُد ويقاس ، وهو تجمع الشيء في ارتفاع ، والجبل معروف ، والجبل الجماعة الكثيرة العظيمة"(1) ، والعرب تستعمل الجبل للشرف والمجد والعزة ، والجبل عند العرب يدل على الصلابة والقوة والثبات ، والجبل : اسم لكل وتد من أوتاد الأرض إذا عظم وطال ، والجمع منه : أجبل وأجبال وجبال ، ويقال : أجبل القوم إذا حفروا قبلغوا المكان الصلب ، وكانت العرب تشبه الرجل العظيم بالجبل ، ومن اشتقاقته : الجبل ، الجبلية ، الجبلية ، الجبل ، والجبلية ، والجبل ، والجبل ، وكل ذلك يدل على الجماعة(2) .

والجبال لها وظيفة في الأرض وهذه حقيقة وهي أنها خلقت من أجل ترسية الأرض ومنعها من أن تميد بالناس ، فهي بجذور أوتادها المغروسة في باطن الأرض تحفظ توازن الأرض وتجعلها مستقرة ليستطيع البشر العيش عليها ، وهي أيضاً لتثبيت قشرة الأرض كما تثبت السفن بمراسيها التي تغوص تحت الماء(3).

فالجبال تعبد الله _ عزَّ وجلَّ _ وتسجد له وتسبحه وتخشاه ، وكأنها إنسان يمتلك المشاعر والأحاسيس ، فالقرآن تحدث عن الجبال بما لم يتصوره عقل إلا بطول التأمل ، فهو حديث عبودية هذه المخلوقات لربها ، وبيان قدرة الله _ عزَّ وجلَّ _ على عظمتها وصلابتها ، فمنها ما كان في سياق بيان قدرة الله _ عزَّ وجلَّ _ وعظمته ، ومنها ما جاء في سياق النعيم ، ومنها ما جاء في سياق العذاب ، وسنبين ذلك

(1) مقاييس اللغة : 183 .

(2) لسان العرب / 11 : 96 - 97 - 98 .

(3) آيات الله المدهشة الجبال نموذجاً وأسرار الاستعمال القرآني لها ، علي محمد الصلابي _ Aljazeera.net/blogs/2020

والجبال لها استقلاليتها على الأرض ، ففي إحدى الدراسات الجغرافية والتي أجريت على (2800) جبل من مختلف القارات وجدوا أن التربة التي تحيط بالجبال بمعادنها ومكوناتها ليست مثل التربة التي يتكون منها الجبل نفسه ، وهذا يعضد كلامنا في أن الجبال وجدت للمحافظة على توازن الأرض والمحافظة على قشرتها ، فلو كان الجبل من نفس التربة التي هو عليها وبفسه يكون حمايته لها !! ونجد ذلك في قوله تعالى : (وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تُمِيدَ بِكُمْ وَآتَاهَا تِلْكَ الْأَرْضُ وَالْحُلُومُ) النحل: ١٥ ، فنرى الجبل الصلب القاسي منحرف فوق الأرض الرخوة الرطبة الزراعية ، ليست الأوتاد هي التي تمسكه!! وقد وجد العلماء الجيولوجيون من خلال حفرهم وتقصّيبهم للجبال أن الجبل كتلة مستقلة مغروسة في عمق مئات الأمتار كما ينغرس الضرس بالثة ، وفي الكثير منها تكون التربة الخاصة بالجبل لونها غير لون التربة المغروس فيها الجبل ، وما لون الجبال الظاهر لنا سوى نوع المعادن الموجودة داخل الأرض التي مستقر هو عليها(1) ، وعن كيفية نشوء الجبال نرى فريقاً من علماء الأرض يقول : بأنها نشأت نتيجة انفجارات داخل الأرض ، ومنهم من قال : بأنها نتجت من داخل الأرض(2) ، على أية حال: فإن الجبال هي خلق من خلق الله وهي خُلقت للعبادة ومسخرة لما أراد الله _ عزَّ وجل _ لها ، فالكثير من مخلوقات الله لن ندرك كنهه مهما حاولنا ، وهذا خير دليل على قدرة الله _ عزَّ وجل _ على الخلق والإبداع ، وأنا مهما علمنا ومهما بلغنا درجات في العلم نبقي عاجزين أمام قدرة الله _ عزَّ وجل _ وخلقهِ وإبداعهِ ، فقد أذهل القلوب قبل العيون ، وأنَّ الله _ عزَّ وجل _ لم يخلق شيئاً عبثاً حاشاه .

المطلب الأول : الخبر في السياق التركيبي البلاغي لمفردة الجبال في القرآن الكريم :

الخبر : هو ما يحتمل الصدق والكذب ، فله نسبة في الخارج إن طابقتة فهو الصدق ، وإن خالفته فهو الكذب ، والخبر لا يكون إلا بين مُخبر به ومخبر عنه ، والقصد من إلقاء الخبر أحد أمرين : إما فائدة الخبر أو لازمه ، وفائدته في إفادة السامع شيئاً لم يكن له به علم من قبل ، أما لازمه فإن يكون السامع على علم بمضمون الخبر والمتكلم يريد أن يخبره بأنه يعرف الأمر مثله ، وللخبر ثلاثة أضرب : إما يكون ابتدائياً أو طلبياً أو إنكارياً ، بحسب المؤكدات في الجملة ، ومدى أهمية الخبر لدى المتكلم(3) .

وفي هذا المعنى جاء قوله تعالى : (وَلَوْ أَنَّ فِرْعَانَ نَبَا سَيِّرَتِ بِهِ الْجِبَالِ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلِّغَ اللَّهُ الْأَمْرَ جَمِيعاً أَفَلَمْ يَأْتِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعاً وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلِفُ ءَلْمِيعاً) الرعد 31، هذه الآية الكريمة نزلت في أبي جهل بن هشام ، فقد جاء "أنه قال لرسول الله _ صلى الله عليه وسلم _ سيّر بقرآنك الجبال عن مكة حتى تتسع لنا فنتخذ فيها البساتين والقطائع ، كما سُخرت لداود _ عليه السلام _ إن كنت نبياً كما تزعم ، فليست أهون على الله من داود ، وسجّر لنا الريح لنركبها ونتجر إلى الشام ثم نرجع في يومنا فقد شق علينا قطع المسافة البعيدة كما سخرت لسليمان _ عليه السلام _ أو ابعث لنا رجلين أو ثلاثة ممن مات من آبائنا منهم قصي بن كلاب"(4) .

حين انتشرت الدعوة الإسلامية بقي أبو جهل ومن معه مصرين على كفرهم وعنادهم ، وإظهار العداوة للرسول _ صلى الله عليه وسلم _ فقالوا على سبيل التهكم : سيّر بقرآنك الجبال وقطع به الأرض وكلم به الموتى ، حتى يؤمنوا بالله _ عزَّ وجل _ ابتدأ تركيب الجملة بالحرف (لو) وفيه معنى الشرط أي : لو كان في الكتب الماضية كتاب تسيّر فيه الجبال عن أماكنها أو تقطع به الأرض أو تنشق ، أو تكلم به الموتى في قبورها لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره ، فهذا ليس من شأن الكتب السماوية السابقة حتى يكون من شأن القرآن الكريم كما أرادوا ، وجواب (لو) محذوف لدلالة المقام عليه ، وفيه معنى التعريض بالنداء عليهم بنهاية ضلالتهم إذا لم يهتدوا بهدي القرآن(5) ، وجاء لفظ (قرآن) بصيغة التذكير دلالة على إرادة الجنس ، والنكرة تقيد العموم من جهة الكلام عن الكتب السابقة ، وتقيد الخصوص من جهة أن قصدهم قرآنك يا محمد ، حين طلب منه أبا جهل أن يسير ويقطع ويكلم بهذا القرآن ، وفي تخصيصهم واختيارهم (الجبال – الأرض – الموتى) دون باقي الخوارق لأنَّ قصدهم الذي يريدون محدد ومعروف لديهم ، ولهذا جاءت هذه الألفاظ بصيغة التعريف ، فالمقصود بالجبال هنا هي جبال مكة ، وهذا في قوله : سيّر بقرآنك الجبال عن مكة حتى تتسع ، فالتعريف فيها لإفراد الجنس وهذا لا يكون إلا إذا كان المتكلم والمخاطب يعرف الجبال المقصودة ، والأرض كذلك القصد منها تجارتهم إلى الشام فقد سألوا الرسول _ صلى الله عليه وسلم _ أن تقطع لهم الأرض لكي يذهبوا ويرجعوا من تجارتهم بنفس اليوم ، والموتى كذلك يقصدون آباءهم وجاء هذا طلبهم على سبيل التهكم ، وفي تقديم الضمير (هاء) الكتابية المجرورة بحرف الجر (به) والتي يكنى بها عن المفرد الغائب أفادت التخصيص ، أي : جبال بعينها وأرض بعينها وموتى بعينهم كما أسلفنا، وجاء أسلوب العطف المتمثل بالحرف (أو) لإفادة الشك، فالتكلم شكاً في نبوة محمد _ صلى الله عليه وسلم _ وشاكاً بما أنزل عليه من القرآن الكريم ، أما في جملة: (ولا يزال الذين كفروا أن تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم) فقد

(1) لولا الجبال لمالت الارض وانقلبت ، albayan.ae/sports/2006

(2) المصدر نفسه .

(3) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها : 195 .

(4) الكشف / 2 : 389 .

(5) تفسير القرآن العظيم / 4 : 291 ، التحرير والتنوير / 12 : 186 ، معاني الحروف : 101 .

أفادت هنا الإيهام فالمتكلم عرف بالأمْر ولكنه يريد إيهامه على المخاطب لزيادة الوعيد والعذاب ولهذا قال : (لا يزال الذين كفروا ..) والقارعة في الأصل من القرع ، وهو ضرب جسم بجسم آخر ، يقال : قرع الباب إذا ضربه بيده بحلقة ، ولما كان القرع يحدث صوتاً مبالغاً يكون مزعجاً لأن فيه مبالغته ومفاجأة ، (بما صنعوا) أي : بسبب كفرهم وسوء معاملتهم نبيهم ، ودلالة الاسم الموصول هنا تدل على الشمول وفيه ذكر جميع أعمالهم فسبب أفعالهم هذه توعدهم الله بالعذاب (حتى يأتي وعد الله) من إطلاق المصدر على المفعول والمقصود موعود الله الذي توعدهم به من العذاب ، وفي مجيئ الفعل الناقص (يزال) بصيغة المضارع دلالة على استمرار هذا الوعيد بالعذاب منهم في خوف منه بزمن الإخبار إلى أن يحين موعده ، وفيه ملازمة الخير المخبر عنه على ما يقتضيه الحال (1) فهم يبقون مصابين بالقارعة وبعد تهكمهم وطلبهم بتسيير الجبال وتقطيع الأرض وتكليم الموتى ، جاءت جملة (بل الله الأمر جميعاً) معطوفة على جملة (ولو أن قرآناً سيرت به الجبال بحرف الاضراب (بل) أي : ليس ذلك من شأن الكتب كما قدمنا ، بل الله أمر كل محدث فهو الذي أنزل الكتاب وهو الذي يخلق العجائب إن شاء ، فهذه الجملة جرت على طريقة الأسلوب الحكيم حيث أمر الله _ عز وجل _ نبيه أن يقول لهم ذلك ، وبين هاتين الجملتين المعطوفة والمعطوف عليها (ولو أن قرآناً) (بل الله الأمر جميعاً) إفادة معنى القصر لأن العطف ب (بل) من طرق القصر ، واللام في قوله (الأمر) للاستغراق وأكد ذلك بلفظ (جميعاً) (2). وبعد هذه الجولة المبتدأة بأسلوب التهكم من أبي جهل ورد الرسول _ صلى الله عليه وسلم _ بأمر من ربه بأسلوب حكيم جاء التنزيل بالجملة الخبرية المؤكدة (إن الله لا يخلف الميعاد) وذلك إيداناً بأن إتيان الوعد محقق وأن الغاية به غاية بأمر قريب الوقوع وليس هناك إخلاف للوعد بدلالة حرف التوكيد (إن) ، والسياق هنا سياق تكذيب الرسالة المحمدية من قبل كفار قريش ولهذا جاء التركيب بعدة مؤكدات لأنه في سياق الخبر الإنكاري . والله أعلم.

وفي سياق الدلالة على تفرد الله _ عز وجل _ بالألوهية أنكر على المخاطبين عدم علمهم بأحوال المخلوقات ، فجاء قوله تعالى بصيغة الاستفهام الإنكاري : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقٌّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۗ) (الحج 18 ، مستنداً بذلك على قدرته وتفرده بالسيطرة والهيمنة على الكون كله ، والسجود هنا يأتي بمعنى المطاوعة والانقياد لله _ عز وجل _ وهو سجد كل خضوع دونه (3) ، فالله سبحانه وتعالى هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له ، وجاء السجود هنا على المعنى الحقيقي والمعنى المجازي ، جاء على الحقيقة سجود كثير من الناس ولو لا إرادة الله ذلك لما احترس بإثباته لكثير من الناس لا لجميعهم ، فلما امتنع واعرَض كثير من الناس عن السجود لله _ عز وجل _ وسجدوا للأصنام كما هو حال المشركين غطى سجودهم الحقيقي على السجود المجازي ، لأنَّ المشاهدة أقوى من دلالة الحال فلم يثبت لهم السجود الذي أثبت لبقية الموجودات، أمَّا السجود المجازي هو سجود الموجودات غير الانسانية ، ووجه بلاغتها أنَّها مسخرة بخلق الله ، فاستعير السجود لحالة التسخير والانصياع (4) ، ومجئ لفظ (يسجد) بصيغة المضارع الدال على الاستمرار لتحقق سجود الخلق جميعاً العاقل وغير العاقل لله _ عز وجل _ ومجئ (مَنْ) وهي اسم لمن يصلح أن يخاطب ، وهو مفرد اللفظ ويقه على الجماعة وجاءت هنا موصولة بمعنى الخبر (5) ، وقد أطلقت هنا على من في السموات ومن في الأرض العاقل وغير العاقل من باب انزال العاقل منزلة العاقل ، وهذا لأنهم عبدوها من دون الله ، والسياق التركيبي اقتضى مجيء الخاص بعد العام ، فذكر أولاً السموات وعطف عليها الأرض ، ثم فصل من الأجرام والمخلوقات مما يكون في السموات والأرض ، فالسياق هنا جاء فيه ذكر السموات قبل الأرض فجاءت الأجرام السماوية قبل المخلوقات الأرضية (والشمس والقمر والنجوم) ومن ثمَّ جاءت المخلوقات الأرضية (والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس) وجاءت كلها في سياق الوصل بالواو والتي هي لمطلق الجمع ، فلا بد من مناسبة بين الكلمات الموصولة وربط ، فالجامع بين الجملتين يجب أن يكون باعتبار المسند إليه في هذه والمسند إليه في هذه وباعتبار المسند في هذه وهذه جميعاً ، فلا يصح الربط بين مسند اليهما ليس بينهما علاقة ولا رابط (6) ، فجميعها من مخلوقات الله _ عز وجل _ وجاءت جميعها في السياق على أسلوب التعريف (السموات ، الأرض ، الشمس ، القمر ، النجوم ، الجبال ، الشجر ، الدواب ، الناس) و (ال) هنا جنسية في (النجوم ، الجبال ، البشر ، الدواب) بمعنى أنَّه لا يشذ واحد من أفراد الجنس عن السجود لله _ عز وجل _ أمَّا في (السموات ، الأرض ، الشمس ، القمر) فإنَّ (أَل) فيها جنسية لتعريف الحقيقة ، أي حقيقة هذه المخلوقات (7) ، وبعد أن أنكر على المخاطبين عدم علمهم بدلالة أحوال المخلوقات على تفرد الله _ عز وجل _ بالألوهية جاء السياق في الأسلوب الخبري المؤكد ب (إن) مع عدم وجود المنكر أفاد الاهتمام والتعليل ، فأكد الجملة السابقة بجملة (إنَّ الله يفعل ما يشاء) أي: هو الخالق المتصرف بشؤون عباده إلى قيام الساعة بدليل الفعل المضارع (يفعل) .

¹ معاني النحو / 1 : 218 – 221 .

² التحرير والتنوير / 12 : 187 – 189 .

³ الكشاف / 3 : 113 .

⁴ التحرير والتنوير / 17 : 163 – 165 .

⁵ مصابيح المعاني : 361 – 363 .

⁶ معاني النحو / 3 : 193 .

⁷ معاني النحو / 1 : 107 .

وفي سياق الخبر المؤكد قال تعالى : (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا) الأحزاب 72 ، 73 ، افتتح الآية بحرف التوكيد (إِنَّا) وتفيد الاهتمام بالخبر ، وجاءت الجملة في سياق الماضي (عرضنا) تفيد أَنَّ هذا العرض أزلّي في مبدأ التكوين عند تعلق القدرة الإلهية بإيجاد الخلائق والموجودات الأرضية ، فالمراد بالإنسان هنا نوع الإنسان لأنّه لو أُريد بعض أفراده أو فرد بعينه لما كان في تحمل هذا الفرد الأمانة ارتباطاً بتعذيب المنافقين والمشرّكين ، ف(أل) التعريف في الإنسان هي لبيان الجنس ، أي : نوع الإنسان(1) ، والمقصود بالأمانة هي جميع وظائف الدين على الصحيح من الأقوال ، ولما كانت الأمانة ثقيلة وعظيمة جاء عرضها على سبيل الاستعارة المكنية ، فلا يطبق تحملها أعظم الموجودات ، وهي خلقت طائفة ومسيرة من الله _ عزَّ وجل _ ، ولهذا جاء السياق التركيبي على سبيل التركيب التمثيلي ، فإذا تتبعنا المشهد بكامله نرى الأفعال (عرضنا ، أبين ، يحملها ، أشفقنا ، حملها) وكلها في سياق الفعل الماضي ، إذ الأمانة عُرضت وحملها الإنسان وانتهت ، وحقيقة العرض هو احضار شيء لآخر ليختاره أو يقبله ، ولثقل الأمانة وعظم شأنها عرضها على السموات والأرض والجبال ، وحقيقة الوصل هنا وتقديم السموات على الأرض على الجبال من بين كل الخلائق والموجودات لأنّهم أعظم المعروف للناس من الموجودات ، وقد عطف الجبال على الأرض وهي منها لأنّ الجبال أعظم ما هو بارز على وجه الأرض ، وهي أعظم ما يشاهده الناس بأبصارهم فوق الأرض ، فالإنسان لا يستطيع رؤية الكرة الأرضية لكنّه يرى ما عليها ، وأعظم ما عليها هو الجبال ، وجاءت هنا بأسلوب التعريف إذ المقصود منها جميع الجبال ، والله أعلم ، ويخبرنا الله _ عزَّ وجل _ في نهاية الآية بأنّ الإنسان كان ظلوماً جهولاً ، وهي جملة اعتراضية ومعناها استئناف بياني لأنّ السامع خبير أنّ الإنسان عند تحمله الأمانة يريد معرفة ما كان من حسن قيامه منها أم عكس ذلك ، وكان ظلوماً جهولاً أي أنّه قصّر في الوفاء بحق ما تحمله تقصيراً بعضه عن عمد وهو المعبر عنه بوصف ظلوماً ، وبعضه عن تفریط في الأخذ بأسباب الوفاء وهو المعبر عنه بكونه جهولاً ، فظلوم مبالغة في الظلم وكذلك جهول مبالغة في الجهل . وفي الجملة إيجاز بالحدف على تقدير: فحملها الإنسان ولم يفِ بما حمله فكان ظالماً لنفسه جاهلاً بتضييع هذه الأمانة .

ولما كان المقام مقام تحذير وترهيب جاء السياق بصيغة المبالغة (فعمل) فقال : (إنّه كان ظلوماً جهولاً) ففيه الكثرة والشدة للنوع الإنساني ، فالقرآن الكريم عند التحذير والترهيب يراعي فيه الأعلىية من أنواع الأجناس والقبائل ، وجاء الفعل ناقص (كان) في سياقه لأنّه وصفت متأصلً فيه وهو الغالب على أفراد جنسه ملازم له سواء كان كثرة أو قلة(2).

المطلب الثاني : الأسلوب الإنشائي في السياق التركيبي البلاغي لمفردة الجبال في القرآن الكريم :

الإنشاء : هو كل كلام لا يحتمل الصدق والكذب لذاته ، فليس له نسبة في الخارج تطابقه أو لا تطابقه ، وهو على نوعين : الإنشاء الطلبي – الإنشاء غير الطلبي ، أمّا الأول فهو مدار اهتمام البلاغيين وهو ما سنتكلم عنه ، وأقسامه : (الأمر – النهي – الاستفهام – التمني – النداء) (3).

أولاً : الأمر : وهو طلب الفعل على وجه الاستعلاء مع الإلزام ، وله صيغ أربع (فعل الأمر-المضارع المقترن بلام الأمر-اسم فعل الأمر-المصدر النائب عن فعل الامر) (4) .

وحين أراد الله _ عزَّ وجل _ الردّ على ما سيكون من حال الجبال يوم القيامة استعمل لفعل الأمر على حقيقته (فقل) قال تعالى : (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا) طه 105 ، فهذه الآية معطوفة على ما قبلها ، وهي في سياق ذكر البعث ووصف ما سيكون حينها من كشف حقيقتهم وإعادة إحيائهم من موتهم ، فكانوا يسألون الرسول _ صلى الله عليه وسلم _ عن ما سيكون في ذلك اليوم سؤال تعنت وتهكم وتكذيب واستهزاء ، فهم ينكرون البعث والقيامة ، فجاء سؤالهم عن الجبال لأنّها موطنهم فهم من ثقيف وفيهم جبل كَرَى ، ولهذا جاءت لفظة (الجبل) على التعريف ، والله سبحانه وتعالى أنبأهم بحال الجبال يوم القيامة ، فهي على عظمها ومتانتها وضخامتها سوف يكون حالها النسف ، وفيه بيان قدرة الله _ عزَّ وجل _ على خلقه مهما كان من حجمها وقوتها فهي لا شيء أمام خالقها ، وجاء سؤالهم عنها بصيغة الفعل المضارع دلالة على أنّ سؤالهم هذا سيكون مستقبلاً ، وإمّا أخبر الله _ عزَّ وجل _ رسوله الكريم بهذا الأمر على تقدير : إذا سألوكم يا محمد فقل لهم ذلك ، والله أعلم ، فجاء فعل الأمر على حقيقته (فقل) بفاء التعقيب وفيها معنى الشرط ، أي : إذا سألوكم عن الجبال فقل ، فالله _ عزَّ وجل _ علم أنّهم سيسألون فأجابهم قبل أن يسألوا ، وسياق التركيب إنكار البعث ولهذا جاءت القوة في الألفاظ وما التكرار إلا لزيادة التوكيد

(1) التحرير والتنوير / 21 : 344 .

(2) التحرير والتنوير / 21 : 344 – 350 .

(3) معجم البلاغة العربية : 677 ، بلاغة التراكيب : 195 .

(4) الاتقان في علوم القرآن : 581 .

وقوة الفعل فقال : (ينسفها ربي نسفاً) والنسف التفريق (1) ، أي : يذهبها ربي ويفرقها ويسيرها تسييراً ، ويجعلها مستوية مثل الأرض ، فكل تلك الجبال على عظمتها وعلوها ومناحتها وصلابتها ستكون مستوية مع الأرض بقدره خالقها ، والآية بعدها تصف حال الجبال من هذا النسف ، قال تعالى : (فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا) طه 106 ، 107 ، وهذه حال مؤكدة لزيادة تصوير ما سيكون من أمر هذه الجبال العظيمة .

وجاء الأمر على حقيقته أيضاً في خطاب سيدنا إبراهيم عليه السلام مع ربه عز وجل حين قال في البقرة : (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ فَلْيَمْنُنْ بِكَ اللَّهُ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذُنُوبِكُمْ) البقرة 260 ، فإبراهيم عليه السلام لم يكن شاكاً في إحياء الله عز وجل للموتى وإنما أراد المعاينة وليس الخبر كالمعاينة ، فالنفوس مستشركة إلى رؤية ما أخبرت عنه (2) ، والنداء هنا محذوف الأداة على تقدير : يا رب ، وفعل الأمر هنا (أرنى) بمعنى بصرنى ، وهو طلب من الأدنى إلى الأعلى على سبيل الدعاء ، فلا يجوز في ذات الله الطلب على الاستعلاء ، واسم الاستفهام هنا (كيف) مجرد عن الاستفهام ، فهو هنا جاء لبيان الحال ، فإبراهيم عليه السلام يريد الوصول إلى مرتبة المعاينة ، ولهذا قال : (أرنى كيف تحي الموتى) أي : بصرنى واجعلني أنظر بعيني كيف يكون إحياء الموتى ، فأجابته الله عز وجل بالاستفهام : (أولم تؤمن) فالواو هنا حرف عطف والهمزة للاستفهام التقريري عن حاله وعامل الحال مقدر دل عليه قوله (أرنى) والتقدير : أأريك في حال أنك لم تؤمن ، وهذا تقرير مجازي مراد به لفت عقله إلى دفع هواجس الشك ، فقال إبراهيم عليه السلام (بلى) وهي إيجاب لما بعد النفي ، لبيان أن صدره سالماً من الشك ، ولذلك جاء فعل الاطمئنان (ليطمئن) بلام متعلقة بمحذوف تقديره : ولكن سألت ذلك إرادة طمأنينة القلب التي لا مجال للتشكيك فيها ، لأنه ينتقل من معالجة الفكر إلى يقين المشاهدة ، وحقيقة الاطمئنان السكون ، وأراد به العلم المحسوس المؤدي إلى انشراح النفس به ، وبعد هذه المحاوراة استجاب الله عز وجل له ودله على طريقة يرى بها إحياء الموتى رأي العين ، فقال : (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ فَلْيَمْنُنْ بِكَ اللَّهُ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذُنُوبِكُمْ) البقرة : 260 ، أمره بصيغة فعل الأمر الحقيقي أن يأخذ أربعة من الطير وقد اختلف في نوعية هذه الطيور فقيل : الغرنوق والطاووس والديك والحمامة ، وقيل الوز والغراب (3) ، ولا طائل من تعيين نوعية هذه الطيور إذ المقام مقام قدرة الله عز وجل على إحياء الموتى ، واستعمال المصدر (الطير) يفيد الواحد ويفيد الجمع ، والحرف (من) للتبعيض دلالة على اختلاف نوع هذه الطيور الأربعة ، والسبب في التنوع هو تأكيد لبيان قدرة الله عز وجل على إحياء الموتى مهما كان نوعهم ومهما اختلف بعضهم ببعض فإبهم سعيدهم كما كانوا من غير نقص أو اختلاف ، وفي تحديده عدد الطيور ليكون وضع أشلائها على الجهات الأربع المشرق والمغرب والشمال والجنوب لدفع التوهم أن جهة أخص وأفضل من جهة ، فالجميع سواء عن الله ، (فصرهن) أي : قطعهن ، وتخصيص لفظ (اليك) أي : أوثقهن ثم قطعهن (4) ، وهذا الوثاق والذبح يستلزم الترتيب والوقت ولهذا جاء الاستعمال القرآني بحرف عطف يفيد الترتيب والتراخي (ثم) وبعد ذلك أمره بأن يجعل على كل جبل جزءاً من أشلاء هذه الطيور ، فجاء الأمر على صيغته وحقيقته (اجعل) والجعل "ما يجعل للإنسان على الأمر بفعله" (5) ، (على) للاستعلاء ، أي : على رأس كل جبل ، وقيل هي أربعة أجبل وقيل سبعة ، ولا طائل من عدد الجبال هنا لأن السياق ليس تعداداً للجبال ، وجاءت لفظة (جبل) على التذكير لتعمم جميع الجبال التي حولك ومن هي بأرضك وحضرتك (6) ، فلم يعين له الجبال بل تركها لاختياره عليه السلام والحكمة من وضع أجزاء الطير على الجبال تفريق الأجزاء وبعدها عن بعضها البعض لتكون عسرة التناول وهذا غاية في الإعجاز لبيان قدرة الله عز وجل على جمعها وإحيائها من موتها (7) ، ومن ثم أمره بأن يدعوهن فقال : (ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَا بُرْهَانَ سَعِيًّا) ، فدعاهن كما أمره الله عز وجل فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش ، واللحم يطير إلى اللحم ، والعظم كذلك ، والدم كذلك ، والأجزاء من كل طائر يتصل بعضها إلى بعض ، حتى رجع كل طائر على ما كان عليه ، وأتينه مشياً ، والكاف في (يأتينك) عائدة على إبراهيم عليه السلام وذلك أن رؤوسهن بيده ، وفي تخصيص لفظ (سعياً) دون مشياً أو طيراناً أو .. ليكون أبلغ له في الرؤية التي سألتها ، فجعل كل طائر يأتي إليه يأخذ رأسه من يده عليه السلام فإذا قدم إليه رأساً غير رأسه يأباه ويرفضه ، فتركبت جميع أجساد الطيور الأربعة بحول الله وقوته (8) ، ثم أمره بأخذ العلم ، قال : (وأعلم أن الله عزيز حكيم) ، فالجملة معطوفة على أولها ، فحين قال : (وإذ قال إبراهيم) في بداية سؤاله الله أن يريه كيفية إحياء الموتى وبعد أن تم له ذلك وأراه بعينه جاء السياق معطوفاً بالواو مع فعل الأمر (واعلم) ليؤكد أن الله عزيز لا يغلبيه شيء ولا يمتنع منه شيء ، وهو حكيم بأقواله وأفعاله وشرعه ، فجاء الفصل بين الاسمين (عزيز حكيم) لأن الأول في سياق قدرة الذات الإلهية والثاني في سياق حكمته بأقواله

(1) تفسير القرآن العظيم / 3 : 201 ، التحرير والتنوير / 16 : 182 .

(2) الجامع لأحكام القرآن / 2 : 202 .

(3) تفسير القرآن العظيم / 1 : 455 .

(4) تفسير القرآن العظيم / 1 : 455 .

(5) مقاييس اللغة : 168 .

(6) الكشاف / 1 : 236 - 237 .

(7) التحرير والتنوير / 2 : 512 - 513 .

(8) تفسير القرآن العظيم / 1 : 455 .

وإفعاله (1) ، والإعجاز يكمن في التركيب البلاغي من اختيار العزيز الحكيم دون غيره من الأسماء الحسنى ، وذلك أن الآية في سياق قدرة الله وعظمته وتسيير شؤون خلقه ، فاقتضى اسمه العزيز الحكيم لبيان القدرة مع الحكمة . والله أعلم .

ثانياً : النهي : وهو طلب الكف عن الفعل على وجه الاستعلاء مع الإلزام ، وله صيغة واحدة وهي (لا الناهية) الداخلة على الفعل المضارع (2) .

وفي سياق ذكر قوم صالح وما كان من أمرهم ومن عنادهم ، جاء الخطاب بصيغة التذكير بنعم الله _ عز وجل _ عليهم ، وتهديدهم بقوم عاد لأنهم جاءوا بعدهم ، فقد أسكنهم الله مساكنهم ، وكانوا أشد منهم قوة ، وحين أتى أمر الله فيهم لم تنفعهم قوتهم ، قال تعالى : (وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَا خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأْنَا فِي الْأَرْضِ تُنْحَدُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْجُثُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) الأعراف 74 ، بدأت الآية الكريمة بفعل الأمر (أذكروا) وهي معطوفة على : (اعبدوا الله) الأعراف 73 ، وعطف عليها قوله : (وبوأكم في الأرض) ، وهذا من التذكير بنعم الله _ عز وجل _ عليهم ، وفيها محذوف تقديره : بوأكم في الأرض منازل ، والأرض معرفة تعريف جنس ، أي : في كل جانب من أرضكم التي أنتم عليها ، وهي أرض الحجر (3) ، ونرى التقابل بين (تتخذون من سهولها قصوراً) (وتحتون الجبال بيوتاً) مع السهول وهي الأرض المستوية قال : تتخذون قصوراً ، في حين مع الجبال وهي الجزء المرتفع من الأرض قال : تحتون بيوتاً ، والسهول ضد الجبال ، فقد قيل : أنهم يسكنون القصور في الصيف ، والبيوت في الشتاء ، ونرى أن الأمر أكبر من هذا بكثير ، فالبيوت هي ما يبيت الرجل فيها مع عياله ، فهي مجمع التشمّل وهي المأوى والمأب ، أمّا القصور : هي الدار الكبيرة ، وتدل على الحبس ، يقال : قصرته ، إذا حبسته (4) ، ومنه قوله تعالى : (حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ) الرحمن 72 ، وجاء الاستعمال القرآني في ذكر الاتخاذ مع القصور ، والنحت مع البيوت ، فأما في القصور فهي مبنية من الجص والأجر والشعر أو الصوف ، أمّا البيوت في الجبال فهي منحوتة ، والنحت فيه من القوة والبأس واستخدام أدوات معينة ، ولهذا انتصب (بيوتاً) على التمييز أي : صارت بعد النحت بيوتاً ، لذلك نرى أن البيوت في الجبال تكون أطول عمراً وأكثر صلابةً وهذا يتناسب مع ما خلقهم الله عليه من طول الأعمار والقوة في الجسم ، وهذا غاية في الترف والحضارة وال عمران التي علمهم الله _ عز وجل _ إياها دون غيرهم ، كذلك نرى أن مع الأرض المنبسطة قال قصوراً ومع الجبال المرتفعة قال بيوتاً ، وهذا يناسب حالهم على ما كانوا عليه من الحروب والغزوات والوحوش المفترسة ، ومحل الامتتان على النعمة أن الله _ عز وجل _ جعل منازلهم على قسمين ، قسم صالح للبناء وقسم صالح للنحت ، وجاء لفظ الجبال في السياق التركيبي هنا على صيغة التعريف إذ القصد منه الجبال التي يعرفونها في أرضهم ، ونرى أنه مع السهول قال : (من سهولها) فجاء بحرف الجر الدال على الظرفية (5) ، أي : في سهولها ، في حين مع الجبال لم يسبقها بظرف أو غيره ، وهذا غاية الإعجاز البلاغي للنظم القرآني ، وجاء في الحالتين الفعل بصيغة المضارع دلالة على استمرارهم ببناء القصور ونحت البيوت مهما طال بهم الزمن من أعمارهم ، فهل يستطيع أحد مهما بلغ من العلم أن يأتي بمثل هذا التركيب! وبعد أن عدد لهم النعم وذكرهم بها جاء النهي عن الفساد في الأرض ، قال : (ولا تعثوا في الأرض مفسدين) والأرض هنا معرفة تعريف جنس ، وقد سبق كلامنا عليها ، وجاء أسلوب النهي متمثلاً بالفعل المضارع (تعثوا) مسبقاً بأداة النهي الجازمة (لا) فالسياق التركيبي جاء بالأمر ثم النهي ، الأمر بحفظ النعم وتذكرها (فاذكروا) وقد تكرر مرتين ، وهذا التكرار يفيد التوكيد ، لكي لا يبقى لهم حجة حين يأتيهم العذاب ، ثم نهاهم عن الفساد مرة واحدة ، وهذا يكفيهم ، وقد أسند إلى واو الجماعة لأن المخاطب هم قوم صالح ، وليس فرداً بعينه ، بل قوم بأكملهم ، أي : لا تفسدوا في الأرض كما أفسد من كان قبلكم ، والمقصود قوم لوط ، فنهاهم عن الإتيان بنفس أفعالهم ، ثم أكد هذا النهي بالحال (مفسدين) .

وفي سياق قصة نوح _ عليه السلام _ مع قومه وذكر السفينة والأحداث التي كانت من غرقهم نجد أن لفظ الجبال ورد على التشبيه ، فقال تعالى : (وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَلْبَسِي أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ) هود 42 ، فشبهه الموج بالجبال ، والموج من خصائص الماء ، فما المعنى من تشبيهها بالجبال ! والماء جارٍ متحرك والجبال صامدة قائمة! نقول : الموج هو ما ارتفع عن الماء في شدة واضطراب ، والجبال هو ما ارتفع عن الأرض بنبات وصمود ، فشبهه علو الماء حال الطوفان بالجبال لعلوها عن الأرض ، وفيه دلالة على ارتفاع الماء ليصل إلى أعلى جبل ليعم الماء على جميع الأرض التي أراد الله _ عز وجل _ إغراق أهلها ، وفي الاستعمال القرآني عدل عن الفعل الماضي إلى المضارع (تجري) لاستحضار الحالة وقت غرقهم ، وجاء نداء نوح _ عليه السلام _ لابنه قبل جريان السفينة ، إذ إنَّها حين تجري يصعب إيقافها لأن كل من فيها مستقرٌ بمكانه ، ولكن ابنه لم يستجب لهذا النداء بل كان في معزل عن المؤمنين وعن السفينة ، ونجد السياق القرآني يستعمل أسلوب النداء المحبب لنفس السامع .

(1) تفسير القرآن العظيم / 1 : 455 .

(2) معجم البلاغة العربية : 694 .

(3) التحرير والتنوير / 8 : 170 - 171 .

(4) مقاييس اللغة : 120 ، 778 .

(5) الجامع لأحكام القرآن / 7 : 198 - 199 .

ثالثاً: الاستفهام: هو العلم بالشيء ، مأخوذ من الجذر الثلاثي (فهم) والفهم معرفتك الشيء بالقلب⁽¹⁾، وفي الاصطلاح هو : طلب العلم بالشيء لم يكن معلوماً من قبل لدى السامع⁽²⁾، وتقسّم أدواته على قسمين :

- 1) الحرفان : (هل) وتكون للتصديق فقط ويكون الجواب عنها بأحد أحرف الجواب ، (الهمزة) وتستعمل لطلب التصديق ، وهو إدراك النسبة ، ويكون الاجابة هنا بأحد أحرف الجواب ، وتكون للتصور وهو إدراك المفرد ، ويكون الجواب عنها بتحديد المفرد .
- 2) أسماء : وتكون للتصور فقط ، وهي : (ما-من-أي-كم-كيف-أين-أنى-متى-أَيان) ولكل واحدة معناها وخصوصيتها .

وقد ورد لفظ الجبال في سياق الاستفهام ، والآية الكريمة لبيان عظم قدرة الله _ عَزَّ وَجَلَّ _ وسعة علمه ووحداية التصرف بالخلائق ، قال تعالى : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلِيلِهِ وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنًا بَرَقَةً يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ) (النور 43)، والاستفهام هنا تقريري لزيادة الحجة عليهم ، والخطاب للنبي _ صلى الله عليه وسلم _ والمراد الجميع ، وجاء الفعل بصيغة المضارع (يزجي) دلالة على الاستمرارية في سوق السحاب ، وجاء لفظ (سحاباً) على التنكير والمقصود بعض قطع من السحاب ، وفيه صورة كاملة للسوق وذلك بأن هذه القطع من السحاب حين انضمامها لبعضها بتقدير الله _ عَزَّ وَجَلَّ _ تصبح كثيفاً وكأنها قطع سُتَاق واحدة تلو الأخرى أو واحدة مع الأخرى ، والسياق التركيبي (ثم يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ) يعطي هذه الدلالة ، فكلمة (بينه) لا تكون إلا بين شيئين اثنين فصاعداً، ثم أعقبه على الترتيب (ثم يجعله ركاماً) والركام : هو الجمع والضم ، فحين تتجمع هذه السحب وتتضم بعضها لبعض يحدث البرق وهو الودق فينزل المطر ، وفي استعمال حرف العطف (ثم) دلالة على ترتيب هذه الجمع لكي يؤدي الغرض المطلوب ، إذ لا يحدث المطر إلا ، أن يسوق الله السحاب ثم بعد ذلك يعقبه التأييف بينه ثم بعد ذلك يعقبه الركام حينها يحدث التماس الكهربائي وهو البرق فيخرج من بين شقوقه المطر ، بعد هذه الصورة البلاغية جاء الوصل ليدلنا على أن جميع هذه الأحداث إنما تكون في السماء وتنزل إلى الأرض ، فقال : (وينزل من السماء من جبال فيها من بَرَدٍ) وإطلاق الجبال للتشبيه بالكثرة فالجبال لا تنزل من السماء بهيئتها التي نعرفها وإنما هي لفظة مستعارة للتعبير عن كثرة السحاب ، وهي على إضمار مفعول محذوف على من قال بأنَّ الله _ عَزَّ وَجَلَّ _ خلق في السماء جبلاً من برد فهو ينزل منها برداً ، فالجبل المختص بالبرد موجود في السماء وينزل الله منه البرد والله أعلم ، وأنا مع الرأي الاول بأنها للتشبيه على كثرة السحاب ، ثم السياق القرآني جعل هذا النزول إصابة ، والإصابة إنما تكون في الشيء المكروه ، قال تعالى : (فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء) فناسب التعبير القرآني أن قال (فيصيب) لأن في نزول البرد نعمة ، وصرفه نعمة ، ومن شدة بريق هذا البرد يكاد يذهب بأبصارهم ، وفيه دلالة على شدة ضياء البرق⁽³⁾ ، والله أعلم .

وكذلك ورد لفظ الجبال في سياق الاستفهام في قوله تعالى : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ) (فاطر 27) ، وهذا خطاب من الله _ عَزَّ وَجَلَّ _ للنبي _ صلى الله عليه وسلم _ ليدفع عنه اغتمامه من مشاهدة عدم انتفاع المشركين بالقرآن الكريم ، وقد افتتحت الآية بالاستفهام التقريري للتشبيه على كمال قدرته في خلقه الأشياء المتنوعة من الشيء الواحد وهو الماء الذي ينزله من السماء فيخرج به الثمرات المتنوعة الألوان⁽⁴⁾ ، والمقصود بالرؤية هنا هي الرؤية البصرية وإنزال الماء من السماء وإخراج الثمرات من الأرض فيه إدماج في الغرض للاعتبار بقدرة الله _ عَزَّ وَجَلَّ _ على ما فيه من اتحاد أصل نشأة الأصناف والأنواع ، فإنزال الماء وإخراج الثمرات متجدد أنأ فأنأ ، وفي الالتفات من الغيبة إلى التكلم (أنزل - أخرجنا) فيه دلالة القدرة لمعاني الصفات لأن الاسم الظاهر أنسب بمقام الاستدلال على القدرة ، وجاء لفظ (الثمرات) على التعريف والمقصود ثمرات النخيل والاعناب لأنها أكثر الثمرات ألواناً ، فألوانها تختلف باختلاف أطوارها فمنها الأخضر والأصفر والأحمر والأسود ، ثم جاء لفظ (الجبال) بأسلوب التقديم ، تقديم الخبر ، وفيه زيادة التشويق والاهتمام لذكر المبتدأ حناً على التأمل والنظر ، (ومن الجبال جدد بيضٌ وحمرٌ مختلفٌ ألوانها وغرابيب سود) فجاء حرف الجر (من) لإفادة التبعض على معنى بعض تراب الجبال جدد ، ففي الجبل الواحد توجد جدد مختلفة ، والجُدُد جمع جُدة وهي الطريقة والخطة في الشيء تكون واضحة فيه ، والجدد البيض التي في الجبال هي ما كانت صخوراً بيضاء مثل المروة أو كانت تقرب من البياض فإن من التراب ما يصير في لون الأصهب فيقال تراب أبيض ولا يعنون أنه أبيض كالجير والجص بل يعنون أنه مخالف لغالب ألوان التراب ، والجُدُد الحمر هي ذات الحجارة الحمراء في الجبال ، وغرابيب جمع غريب وهو اسم للشيء الأسود الحالك سواده ، وهو الغراب لشهرته بالسواد ، وسود جمع اسود وهو الذي لونه السواد⁽⁵⁾ ، وكان حقه التأخير ، فيقال : أسود غريب كما يقال : أصفر قاقع وأحمر قانٍ ، ففي الكلام تقديم وتأخير والمعنى : ومن الجبال سود غرابيب والعرب تقول للشديد السواد أسود غريب⁽⁶⁾ ، وخولف ذلك رعاية الفواصل المبنية على الواو والياء الساكنتين ، والتوكيد حاصل من هذا ، وحديث القرآن هنا عن الجبال ورد في مقام

¹ مقاييس اللغة : 722 .

² مفتاح العلوم : 308 .

³ الجامع لأحكام القرآن / 16 / 190 - 193 ، الكشاف / 3 / 187 - 188 ، التحرير والتنوير / 18 / 208 - 211 .

⁴ تفسير القرآن العظيم / 3 / 293 .

⁵ التحرير والتنوير / 22 / 154 - 157 .

⁶ الجامع لأحكام القرآن / 14 / 220 - 221 .

إظهار تمام القدرة الإلهية عن طريق الإخبار بما من الله _ عزَّ وجل _ به على العباد من إنزال الماء الذي به حياة كل شيء ومنه إخراج الثمار المتنوعة ، وفي عطف الجبال على الماء بما فيه من المنافع التي لا تحصى ، والذي فيه حياة الارض دليل ظاهر على اهمية الجبال ومنافعها فجعل الجبال في مكانة تضاهي مكانة الماء الذي به حياة الارض مستخدماً في ذلك اسلوب الاستفهام التقريري بدلالته على أنَّ ما بعده أمرٌ له شأن يستحق الوقوف عليه والانتباه له⁽¹⁾ .

رابعاً : النداء : وهو طلب إقبال المدعو إلى الداعي ، وهو تعبير عن بواعث مشوقة إلى استحضار الصاحب أو الصاحبة والحديث إليه أو إليها ، والنداء كغيره من الأساليب لديه صيغٌ وأدوات ، وهذه الأدوات هي : (وَا _ أَيَا _ أَي _ أَي _ هيا _ وا _ يا) وهذه الأدوات تقسم على قسمين :

(1) أدوات لنداء القريب، وهما حرفان : (أي _ الهمزة)

(2) أدوات لنداء البعيد ، وهي : (يا) وتكون للقريب والبعيد ، والأغلب فيها نداء البعيد ، وبقية أحرف النداء⁽²⁾ .

قال تعالى : (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَلْبَسُ أَجْنَاسَ أَجْنَاسٍ أَوْبَى مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَالنَّارُ لَهُ الْخَبِيرُ) سبأ 10 ، سياق الآية في ذكر نعم الله _ عزَّ وجل _ لداود _ عليه السلام _ احتجاجاً على ما منح لسيدنا محمد _ صلى الله عليه وسلم _ أي : لا تستبعدوا هذا فقد فضلنا على عبيدنا قديماً ، فبعد أن كان داود _ عليه السلام _ راعياً غليظاً اصطفاه الله _ عزَّ وجل _ نبياً ملكاً صالحاً مصلحاً لأمة عظيمة ، فأثم الله عليه بنعم الدنيا والآخرة وباركه وبارك نسله ، وفي ذكر فضله عبرة للناس بحسن عناية الله بالمنيبين تعريضاً بصد ذلك للذين لم يعتدوا بأيات الله ، وفيه إيحاء وبشارة للنبي _ صلى الله عليه وسلم _ بأنه بعد تكذيب قومه وضيق حاله منهم سيؤول شأنه إلى عزة عظيمة وتأسيس ملك أمة عظيمة كما آلت حال داود ، وجاء لفظ (فضلاً) على التنكير للتعظيم وهو فضل النبوة وفضل الملك وفضل العناية بإصلاح الأمة وفضل القضاء بالعدل وفضل الشجاعة في الحرب ... الخ ، وجاء أسلوب النداء مع الجبال (يا جبال أوبي معي) وهو نداء غير العاقل ، وأداة النداء (يا) تأتي لنداء البعيد والقريب ، فالله _ عزَّ وجل _ يخاطب الجبال بأسلوب النداء ويأمرها بالتسبيح مع داود _ عليه السلام _ فهي على عظمتها وقوتها مسخرة لداود _ عليه السلام _ بأمر الله _ عزَّ وجل _ وكذلك الطير بالنصب فكل يسبح مع داود _ عليه السلام (3) _ ، وقوله : (وَأَلْنَا لَهُ الْحديد) أي : صار عنده كالشمع أو كالعجين يصرفه كيف يشاء من غير نار أو مطرقة(4) .

وجاء النداء محذوف الأداة في القرآن الكريم في قوله تعالى : (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تُوْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِنَّكَ تَمَّ أَجْعَلُ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَأَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) البقرة 260 ، وقوله تعالى : (وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن نَّرِيكَ وَلَٰكِن نَّرِيكَ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرِيكَ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ سُجَّدًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ) الأعراف: 143 ، والآيتان نداء الأنبياء ربهم ، ففي الآية الأولى نداء إبراهيم _ عليه السلام _ لربه _ عزَّ وجل _ حين طلب منه أن يريه كيفية إحياء الموتى ليطمئن قلبه ، وحذف الأداة لقرب المنادى من المنادي ، كيف لا وإبراهيم _ عليه السلام _ خليل الله ، وفي الآية الثانية نادى موسى _ عليه السلام _ ربه _ عزَّ وجل _ كيف لا وهو كليم الله ، وكان هذا النداء في سياق تكليم الله له ، فكلا الآيتين حذفنا منها الأداة لقرب المنادى من المنادي ، والله أعلم ، وجاء لفظ (الجبال) في سياق بيان قدرة الله _ عزَّ وجل _ وتصرفه في خلقه ، ففي الآية الأولى كان لفظ الجبال نكرة مقصودة تحمل دلالة المعرفة لأن سيدنا إبراهيم _ عليه السلام _ حين نادى ربه وطلب منه أن يريه إحياء الموتى كانت الجبال حوله وهو يراها ، ولهذا جاءت على التعريف ، وفي الآية الثانية جاءت الجبال بلفظ المفرد وعلى التعريف أيضاً وذلك أن الله _ عزَّ وجل _ حين كلم موسى _ عليه السلام _ كلمه في الوقت الموعود في وادي طوى وفيه جبل الطور وهو الجبل الغربي عن يمين الوادي(5) ، وهذا الكلام كان سماعاً من غير واسطة ، فسأله النظر إليه اشتياًقاً لرؤيته ، فأجابه _ عزَّ وجل _ لن تراني في الدنيا ولكن انظر إلى الجبل ، فجاء الجبل في مقام ضرب المثل ، فضرب الله له الجبل مثلاً مما هو أقوى منه من بنيته وأثبت ، فإن ثبت الجبل واستقر فسوف تراني وإن لم يثبت الجبل فلن تراني ، وحين رأى الجبل ربه صار دكاً بإدراك خلقه الله له ، وموسى _ عليه السلام _ خرَّ صعقاً(6) .

المطلب الثالث : أسلوب التقديم والتأخير في السياق التركيبي البلاغي لفظ الجبال في القرآن الكريم :

(1) من اسرار التعبير القرآني في حديثه عن الجبال : 2185 _ 2186 .

(2) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها : 658 .

(3) التحرير والتنوير / 22 : 24 _ 26 .

(4) الجامع لأحكام القرآن / 14 : 172 .

(5) البداية والنهاية / 2 : 54 _ 55 .

(6) الجامع لأحكام القرآن / 7 : 223 .

التقديم والتأخير : هو أول الشيء زماناً ومكاناً ، والتأخير عكسه⁽¹⁾ ، والبلاغيون لم يضعوا تعريفاً لهذين الأسلوبين إنما وصفوهما وصفاً ، فقال الجرجاني : "هو باب كثير الفوائد ، جُمَّ المحاسن ، واسع التصرف ، بعيد الغاية ، لا يزال يفتر عن بديعة ، ويفضي بك الى لطيفة ، ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعه ، ويلطف لديك موقعه ، ثم تنتظر فتجد سبب أن رافك ولطف عندك أن قُدِّم فيه شيء وحول اللفظ عن مكان إلى مكان"⁽²⁾ ، والتقديم الذي عني به البلاغيون على ثلاثة أقسام⁽³⁾ :

- (1) تقديم المسند إليه (المبتدأ) على المسند (الخبر) .
- (2) تقديم المسند (الخبر) على المسند إليه (المبتدأ) .
- (3) تقديم متعلقات الفعل كتقديم المفعول على الفعل .

وقد ورد التقديم والتأخير في القرآن الكريم ، وما يعيننا هنا هي الآيات المتعلقة بذكر الجبال والسياقات الواردة فيها ، وبعد البحث والتقصي وجدت أن الآيات التي ذكرت فيها الجبال جاء التقديم فيها لشبه الجملة المتكونة من الجار والمجرور ، من ذلك قوله تعالى : (وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلَّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِيسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَن لَّو يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ) الرعد 31 ، فقَدَّم الجار والمجرور ثلاث مرات على التوالي للاهتمام ، وقَدَّم الجار والمجرور (الله) ، والتقدير : سيرت الجبال به ، قطعت الارض به ، كلم الموتى به ، بل الأمر جميعاً لله ، وسبب نزول هذه الآية : "أنَّ نفرأ من مشركي مكة فيهم أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية المخزوميان جلسوا خلف الكعبة، ثم أرسلوا إلى الرسول _ صلى الله عليه وسلم _ فأتاهم ، فقال له عبد الله : إن سرَّك أن نتبعك فسِرِّ لنا جبال مكة بالقرآن ، فأذهبها عنا حتى تنفسح فإنَّها أرض ضيقة ، واجعل لنا فيها عيوناً وأنهاراً حتى نغرس ونزرع ، فلست كما زعمت بأهون على ربك من داود حين سخر له الجبال تسير معه ، وسخر لنا الريح فنركبها الى الشام نقضي عليها ميرتنا وحوادثنا ثم نرجع من يومنا ، فقد كان سليمان سخرت له الريح كما زعمت ، فلست بأهون على ربك من سليمان بن داود ، وإحي لنا قُصياً جدك ، أو من شئت أنت من موتانا نسأله ، أحق ما تقول أنت أم باطل ؟ فإنَّ عيسى كان يحي الموتى ، ولست بأهون على الله منه ، فأنزل الله تعالى الآية الكريمة"⁽⁴⁾ ، فالقصد من الآية بيان عظمة القرآن الكريم ، فالله _ عزَّ وجل _ يمدح القرآن الكريم الذي أنزله على محمد _ صلى الله عليه وسلم _ ومفضلاً له على سائر الكتب قبله ، وقوله : (قرآنًا) على التنكير لأنها شملت جميع الكتب السماوية التي نزلت قبل القرآن الكريم ، فلو كان في الكتب السابقة كتاب تسير به الجبال عن أماكنها أو تقطع به الأرض وتنشق أو تكلم به الموتى في قبورها لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره لما فيه من الإعجاز الذي لا يستطيع الجن والإنس عن آخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثله⁽⁵⁾ ، ولكن ليس الغرض من هذه الكتب تسيير الجبال أو غير ذلك ، بل لله أمر كل محدث فهو الذي أنزل الكتاب وهو الذي يخلق العجائب إن شاء ، فناسب السياق التركيبي تقديم الجار والمجرور (به) في قوله : (ولو أنَّ قرآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلَّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ) للاهتمام ، فالكلام عن عظمة القرآن الكريم ولهذا قدم الضمير (الهاء) العائد عليه ، فليس المهم عندهم هو قطع الأرض أو سير الجبال ، وإنما أرادوا التهكم برسول الله _ صلى الله عليه وسلم _ وبكتاب الله المنزل عليه ، فناسب السياق تقديم الجار والمجرور (به) وبعد أن قَدَّم تهكمهم وأدمغهم الحجة قال : (بل لله الأمر جميعاً) فقَدَّم الجار والمجرور (لله) لأنَّ الاهتمام والتخصيص هنا لله ، بمعنى أنَّ هذا الأمر الذي طلبتموه عائد لله _ عزَّ وجل _ إن شاء فعله وإلا فلا ، وجاء تأكيد ذلك بلفظ (جميعاً) أي جميع ما ذكرتموه ، والله أعلم .

ومنه كذلك قوله تعالى : (وَكَانُوا يَنْجُثُونَ مِّنَ الْجِبَالِ يُّبُورًا ءَامِنِينَ) الحجر : ٨٢ ، فقَدَّم الجار والمجرور (من الجبال) على المفعول (بيوتاً) وناسب ذلك السياق حالهم من هذا النحت ، فكانوا يبحثون عن الأمن ولهذا قاموا بنحت الجبال ، فالعرب تقدم ما هو الأهم عندهم ، فكانوا يخافون نزول العذاب بهم ، وقيل كانوا يخافون الموت لاغترارهم بطول العمر ، وقيل كانوا يخافون من الاعداء واللصوص ، ولهذا قال (آمنين) فكان سبب نحتهم طلبهم للأمان ، وكان هذا النحت في الجبال لأنها بعيدة وصعبة الوصول ، و(من) هنا تبعيضيه أي بعضاً من الجبال وهي الموجودة بوادي الحجر الذي مرَّ به الرسول _ صلى الله عليه وسلم _ وهو ذاهبٌ الى تبوك⁽⁶⁾ ، فكانوا ينحتونها ويجعلون منها بيوتاً لهم.

⁽¹⁾ لسان العرب / 4 / 11 _ 12 .

⁽²⁾ دلالات الاعجاز : 148 .

⁽³⁾ معجم المصطلحات البلاغية وتطورها : 404 _ 405 ، معجم البلاغة العربية : 540 _ 546 .

⁽⁴⁾ الجامع لاحكام القرآن / 9 / 215 .

⁽⁵⁾ تفسير القرآن العظيم / 2 / 291 .

⁽⁶⁾ تفسير القرآن العظيم / 2 / 344 .

ومنه قوله تعالى : (فَفَهَّمَهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ) الأنبياء 79 ، يتكلم الله _ عزَّ وجل _ هنا عن النعم التي أسبغها على داود _ عليه السلام _ ومنها أن سَخَّرَ معه الجبال يسبحن وعطف عليه الطير ، فالسياق التركيبي هو سياق بيان نعمة الله على داود _ عليه السلام _ ولهذا ناسبه تقديم الجار والمجرور (مع داود) على الجبال ، وذكر الجبال هنا بيان أنها مع حجمها وقوتها وصلابتها إلا أنها طائعة لله تسبح مع داود _ عليه السلام _ .

المطلب الرابع : أسلوب الفصل والوصل في السياق التركيبي البلاغي لمفردة الجبال في القرآن الكريم :

الفصل في اللغة : بون ما بين الشينين ، وفصلت الشيء فانفصل ، أي : قطعته فانقطع(1). وهو في اصطلاح البلاغيين : ترك عطف بعض الجمل على بعض ، والوصل : عطف بعضها على بعض(2).وفن الفصل والوصل مما اعتنى به البلاغيون القدامى لدقة مسلكه وإعمال الفكر في معرفة غامضه، فمن أحرز الفضيلة فيه فقد أحرز البلاغة في سائر معانيها(3)، ومن هذا الكلام يتبين لنا مدى أهمية هذا الفن البلاغي . وللفضل مواضع حددها البلاغيون، وهي : (كمال الانقطاع مع عدم الإبهام ، شبه كمال الانقطاع ، كمال الاتصال ، شبه كمال الاتصال) وللوصل مواضع كذلك ، وهي:(التوسط بين كمال الانقطاع وكمال الاتصال ، كمال الانقطاع مع الإيهام) .

ومنه قوله تعالى : (لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأُمُتُلُ تُضْرَبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) الحشر: ٢١ ، نرى أسلوب الفصل متمثلاً بقوله : (خاشعاً متصدعاً) ففصل بين الخشوع والتصدع ، والخشوع : هو التلطأ والركوع ، والتصدع : التشقق ، وورد لفظ الجبل في السياق التركيبي دلالة على أن الجبل على شدته وصلابته وقلة تأثره بما يقرعه لو كان الخطاب له لتأثر بخطاب القرآن متأثراً ناشئاً من خشية الله ، فلو كان الجبل في موضع هؤلاء الذين نسوا كلام الله وأعرضوا عنه لتصدع وركع أمام كلام الله _ عزَّ وجل _ ، فجاء الفصل بين الخشوع والتصدع لأنَّ الخشوع أخف من التصدع(4) ، والله أعلم .

وقال تعالى في ذكر قصة نوح _ عليه السلام _ مع ابنه في حادثة السفينة (قَالَ سَأُوْىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَّجِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ) هود 43، فجاء أسلوب الفصل في قوله : (قال ساوي الى جبل قال لا عاصم اليوم) وذلك أن السياق سياق محاورة بين الأب وابنه ، وهذا الحوار كان قبل أن يبلغ الماء أعالي الجبال ، فجاء لفظ الجبل في سياق المحاورة شاهداً على قدرة الله _ عزَّ وجل _ في بلوغ الماء إلى أعلى الجبل ، وإن كان ظن ولد نوح _ عليه السلام _ أن الماء لن يصل إليه ، وحين ما تمَّ أمر الله وحال الموج بينهما جاء أسلوب الوصل لأنَّ المحاورة تمت وانتهت .

ونرى أسلوب الوصل في قوله تعالى : (وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرٰنِي وَلٰكِنْ أَنْظِرْ إِلَىٰ الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرٰنِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحٰنَكَ تُبٰثُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ) الأعراف 143 ، نجد أسلوب الوصل متمثلاً بقوله تعالى : (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخرَّ موسى صقعاً) فحين استجاب الله لرسوله موسى _ عليه السلام _ وتجلى للجبل جعله دكاً من شدة الموقف ورهبة الله _ عزَّ وجل _ وفي هذه الأثناء خرَّ موسى صقعاً ، فالبشر مخلوق ضعيف لا يقوى على الأحداث العظيمة وأي حدثٍ أعظم من رؤية الله _ عزَّ وجل _ ثمَّ بعد أن أفاق موسى _ عليه السلام _ قال : (سبحانك تبتُّ إليك وأنا أول المؤمنين) فوصل التوبة بالإيمان بالله _ عزَّ وجل _ فناسب السياق التركيبي والتسلسل الحدثي أسلوب الوصل .

المطلب الخامس : التعريف والتنكير في السياق التركيبي البلاغي لمفردة الجبال في القرآن الكريم :

المعرفة في اللغة : تتابع الشيء متصلاً ببعضه ببعض ، يقال : عرف فلان فلاناً فهو معروف ، والنكرة تدل على خلاف ذلك(5)، وفي الاصطلاح : النكرة ما دلت على شيء لا بعينه ، والمعرفة عكس ذلك(6) .

وهناك أغراض بلاغية من أجلها ينكر المسند إليه ، وهي : (الأفراد الذي يصدق عليه مفهوم اللفظ ، النوعية ، التعظيم ، التكثر والتقليل) أما الأغراض التي من أجلها ينكر المسند ، هي : (ارادة عدم حصر المسند في المسند إليه ، ارادة التفخيم ، ارادة التحقير) ، أما المعرفة فهي على أقسام (التعريف بالإضمار ، التعريف بالعلمية ، التعريف باسم الإشارة ، التعريف باللام ، التعريف بالإضافة)(7) .

(1) لسان العرب / 11 : 521 .

(2) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها : 549 ، معجم البلاغة العربية : 513 .

(3) اعجاز القران وعلم المعاني : 262 .

(4) التحرير والتنوير / 28 : 104 .

(5) لسان العرب / 9 : 236 – 237 ، مقاييس اللغة : 658 – 659 .

(6) الطراز لاسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز / 2 : 8 ، معجم المصطلحات البلاغية : 382 .

(7) معجم البلاغة العربية : 691 – 694 ، البلاغة فونها وافنانها / 1 : 309 – 333 .

ومن التعريف والتكبير قوله تعالى : (لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) الحشر 21 ، جاء لفظ (القرآن) على التعريف والمقصود القرآن الكريم بدلالة اسم الإشارة هذا والتي تكون للقريب ، أما (جبل) فجاء على التكبير والمقصود ليس جبل بعينه بل قساوته وصلابته وحجمه ، فبرغم صفاته هذه لكنه يتصدع ويخشع لله من عظيم منزلة القرآن الكريم .

وكذلك ورد لفظ (جبل) في قصة نوح _ عليه السلام _ على التكبير ، وقال تعالى : (قَالَ سَأُوْنِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَّجَمَ وَحَالٍ بَيْنَهُمَا لَمَوُجٌ فَكَانَ مِنَ الْمَغْرُوبِينَ) هود 43، والمقصود ليس جبل بعينه بل بعلوه ، فابن نوح _ عليه السلام _ يتصور بأنه بصعوده على جبل عال سينفذه من الغرق ، فجاء الجبل هنا دلالة على العلو والارتفاع . أما في بيان قدرة الله _ عزَّ وجلَّ _ على الخلق والإبداع جاء لفظ (الجبل) على التعريف في قوله تعالى : (وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ) الغاشية 19 ، والقصد منها جميع الجبال ، فالسياق في ذكر دلائل قدرة الله _ عزَّ وجلَّ _ فناسب ذلك التعريف للجبال لأنها جميع جبال الأرض ، والتي من أجل غايتها إمساك الأرض أن تميد ، وقد جعل فيها المعادن ، وهذه من نعم الله _ عزَّ وجلَّ _ على عباده . أما في مشاهد يوم القيامة فالجبال جاءت على التعريف والقصد منها جميع جبال الأرض ، وهي على عظمتها وصلابتها ستكون سراباً ، قال تعالى : (وَسَيَّرَتِ الْجِبَالَ كَأَنَّهَا سُرَابًا) النبا 20 .

المطلب السادس : الإيجاز والاطناب في السياق التركيبي البلاغي لمفردة الجبال في القرآن الكريم :

الإيجاز : وهو من أهم خصائص اللغة العربية فقد كان العرب يعدون الإيجاز من البلاغة ، وهو قصور البلاغة على الحقيقة ، وما تجاوز مقدار الحاجة فهو الفضلة ، وفيه دلالة على صاحب الصنعة(1) فإذا أردنا تعريفه نقول: هو أداء المقصود من الكلام بأقل العبارات ، وله أقسام : (إيجاز قصر _ إيجاز حذف) (2)، ومنه حذف الكلمة وحذف الجملة .

الإطناب : هو الطول والتتابع(3)، وهو زيادة اللفظ على المعنى ، وشرطها الفائدة من غير ترديد أو تكرار ، وله أغراض بلاغية : (الإيضاح بعد الإبهام _ ذكر الخاص بعد العام _ التكرير لفائدة _ الإيغال _ التذييل _ الاحتراس _ التتميم _ الاعتراض _ وضع الظاهر موضع المضمرة) (4).

نجد في أسلوب المحاوراة بين الله _ عزَّ وجلَّ _ وموسى _ عليه السلام _ جاء الاستعمال القرآني بأسلوب الإطناب ، والسياق سياق محاوراة بين اثنين ، قال تعالى : (وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرٰنِي وَلٰكِنْ أَنْظِرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرٰنِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعْفًا فَلَمَّا آفَقَ قَالَ سُبْحٰنَكَ تُبٰثُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ) الأعراف 143 ، وفائدة الإطناب هنا إيغال، أفاد التقرير وزيادة التوكيد .

ومن صور الإيجاز إيجاز الحذف ، وهذا متمثل بقوله تعالى : (وَتَرٰى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ ثَمَرٌ مَّرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ) النمل 88 ، يخبرنا الله _ عزَّ وجلَّ _ في هذه الآية عن هول يوم الفرع الأكبر ، وهو يوم القيامة ، فالجبال ستزول عن أماكنها بعد أن عهدناها جامدة راسخة في أماكنها ، لكنَّها في ذلك اليوم ستمر مرَّ السحاب من سرعتها ، وهذا من قدرة الله _ عزَّ وجلَّ _ ففي ذلك اليوم كل شيء سيزول وهذا صنع الله الذي أتقن كل شيء صنعاً ، فالآية فيها ما فيها من الإيجاز ، فتلك المشاهد في ذلك اليوم تذهل العقول ، وسيحاسب الله المؤمن والكافر على السواء ، فترى في الآية إيجاز حذف متمثل بسرده الأحداث، إذ الغرض بيان قدرة الله في التصرف بخلقهم وضرب لنا في هذا المشهد (الجبال) فهي على شدتها وكبر حجمها ستزول فما بالك بباقي الخلائق! ثم ذيل الآية بالتوكيد (إنَّه خبيرٌ بما تفعلون) وهذا من الإيجاز في التذييل .

ومن الإيجاز قوله تعالى : (وَأَوْحٰى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ) النحل 68 ، فأوجز كثيراً في لفظة (أوحى) أي : علم وألهم وقذف في قلوبها ، فلم يذكر كيف علمها أن تبني بيوتها، ماهي الخطوات ! وذكر الجبال أولاً لأنها الأكبر

(1) الصناعتين : 130 .

(2) مفتاح العلوم : 276 – 277 ، المثل السائر / 1ك 264 _ 269 .

(3) لسان العرب / 1 : 562 ، الحيوان / 6 : 7 .

(4) بلاغة التراكيب دراسة في علم المعاني : 252 _ 272 ، البلاغة فنونها وأقنائها / 1 : 498 _ 525 .

والأشد ثم عرج إلى الشجر ثم العرائش، ولكن لم يذكر كيف تبني بيوتها ، وفي هذا إيجاز جميل وقمة في البلاغة والإعجاز ، و(من) تبعيضه ، أي : بعضاً من الجبال وبعضاً من الشجر وبعضاً من العرائش.

خاتمة

1. الآيات في سياق قدرة الله _ عزَّ وجلَّ _ وعظمته احتلت المساحة الأكبر، وذلك دليل على أنَّ قدرة الله فوق كل قدرة وكل شيء .
2. جاء النحت في الجبال خاصاً لقوم صالح لأنَّ أعمارهم كانت طويلة وأجسامهم ضخمة فكان البيت الذي بينون يخرب قبل موت الواحد منهم ولهذا نحتوا بيوتهم في الجبال. وهناك سبب آخر وهو لكون مادة الجبال من الصخور الصلدة ؛ فناسبت كلمة النحت هنا .
3. مهما تكن الأسباب التي من أجلها نحتوا بيوتهم في الجبال واتخذ النحل بيوتا في الجبال فكل ذلك دليل على عظمة الواحد الأحد الذي جعل لهم من كل شيء حصناً وفضل هذه الحصون هي الجبال فلا عدو يصل اليهم ولا حرَّ الصيف وتكفيهم على مدى أعمارهم وهي الى الان آثار بيوتهم باقية في الجبال ، والعجيب أنَّ بني البشر الى الآن عند احساسهم بالخطر من عدو وغيره يهرعون الى الجبال يتحصنون فيها .

References:

- 1) Al-Itqan fi 'Uloom Al-Qur'an, Al-Suyuti, Jalalud-deen 'Abdur-Rahman. Edit. M. A.Ibrahim, Modern Liberar, Beirut, Lebanon, 201
- 2) Al-Itqan fi Ulum al-Quran, by Hafiz Jalal al-Din Abd al-Rahman al-Suyuti, edited by Muhammad Abu al-Fadl Ibrahim, Al-Maktaba al-Asriya, Sidon-Beirut, Lebanon, 2012.
- 3) Al-Kashaf 'an Haqa'iq Ghawamid Al-Tanzil Wa-Uyoon Al-Aqawil Fi Wujuh Al-Ta'wil, Imam Mahmud ibn 'Umar Al-Zamakhshari (d. 528 AH), edited and authenticated by Abu 'Abdullah Al-Dani ibn Munir Al-Zuhawi, Dar Al-Kitab Al-Arabi, Beirut, Lebanon, 2012.
- 4) Al-Mathal Al-Sa'ir Fi Adab Al-Katib Wa Al-Sha'ir, by Diya' Al-Din ibn Al-Athir, edited by Dr. Ahmad Al-Hawfi and Dr. Badawi Tabana, Nahdet Misr Library, Al-Faggala, 1960.
- 5) Dictionary of Arabic Rhetoric, by Dr. Badawi Tabanah, Dar al-Manara, Jeddah, Dar Ibn Hazm, Beirut, 4th ed., 1997.
- 6) Inimitability of the Qur'an and the science of syntax. Dr. 'Umar Mulla Hwaish. Darul- Falah. Kuwait, 1986.
- 7) Lisan Al-Arab, Abu Al-Fadl Jamal Al-Din Muhammad ibn Makram ibn Manzur Al-Ifriqi Al-Masri, Dar Sadir, Beirut, Lebanon, 1300 H.
- 8) Ma'ani al-Huroof, by al-Hasan Ali ibn Issa al-Rumani, Dar al-Shorouk for Publishing and Distribution, 1980.
- 9) Ma'ani al-Nahw, by Dr. Fadhel Saleh al-Samarra'i, Arab History Foundation,, 2007.
- 10) Maqayis al-Lughah, by Abu al-Husayn Ahmad ibn Faris ibn Zakariya, reviewed and commented on by Anas Muhammad al-Shami, Dar al-Hadith, Cairo, 2008.
- 11) Masabih al-Ma'ani fi Huruf al-Ma'ani, Imam Muhammad ibn Ali ibn Abdullah ibn Ibrahim al-Khatib al-Mawzi'i, Abu Abdullah, known as Ibn Nur al-Din. Edited, introduced, and commented on by Dr. Jamal Talaba, Dar Zahid al-Qudsi, Cairo, 1995.
- 12) Miftah al-Ulum, Abu Ya'qub Yusuf ibn Muhammad al-Sakaki, edited by Dr. Abdul Hamid Handawi, Dar al-Kutub al-Ilmiyyah, Beirut, Lebanon, 2nd ed., 2011.
- 13) Rhetoric: Its Arts and Substances, by Fadl Hasan Abbas, Dar al-Nafa'is, Jordan, 13th ed., 2018.
- 14) Tafsir al-Qur'an al-'Azim, Imad al-Din Abu al-Fida Ismail ibn Katheer al-Dimashqi, Dar Ibn al-Jawzi, Cairo, 2009.

- 15) Tafsir al-Tahrir wa al-Tanwir, also known as Tafsir Ibn ‘Ashur, authored by His Eminence Imam Sheikh Muhammad al-Tahir Ibn Ashur, History Foundation, Beirut, Lebanon, .
- 16) The Book of Animals, by Amr ibn Bahr al-Jahiz and Mustafa al-Babi al-Halabi, Cairo, 2006.
- 17) The Beginning and the End, by Ibn Kathir al-Dimashqi.
- 18) The Compendium of the Rulings of the Qur'an, by Abu Abdullah Muhammad ibn Ahmad ibn Abi Bakr ibn Farah al-Ansari al-Khazraji Shams al-Din al-Qurtubi, edited by Ahmad al-Bardouni and Ibrahim Atfeesh, Dar al-Kutub al-Masriya, Cairo, 1964.
- 19) The Rhetoric of Structures: A Study in Semantics, Dr. Tawfiq al-Fil, Maktaba al-Adab, Cairo, 1991.
- 20) The Signs of the Inimitability in the Science of Semantics, by Abd al-Qahir al-Jurjani, introduced and indexed by Dr. Yassin al-Ayyubi, Al-Maktabat al-Asriya, Sidon, Beirut, 2003.
- 21) The Style: The Secrets of Rhetoric and the Sciences of the Truths of the Miracle, Yahya ibn Hamza ibn Ali ibn Ibrahim al-Alawi al-Yemeni, Al-Muqtataf Press, Egypt, 1914.